هوامش

أشارت دراسة جديدة نشرت في مجلة «ساينس» إلى أنّ سقوط مملكة حِمير اليمنية ربّما حصل بسبب موجات الجفاف المستمرة التي ضربت شبه الجزيرة العربية في القرن السادس

سقطت حِمير في أيدي غزاة أكسوم الإثيوبيين في عام 525 م (فيسبوك)

مملكة «حِمير» سقوطٌ بسبب الجفاف

محمد الحداد

لما يقارب من 300 عام، كانت مملكة حِمير اليمنية هي القوة المهيمنة في شبه الجزيرة العربية القديمة. ربط اقتصادها القائم على الزراعة والتجارة الخارجية، شرق أفريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك، تراجعت قبضة حمير السياسية والاقتصادية والدينية على المنطقة خلال أوائل القرن السادس حتى سقطت في نهاية المطاف في أيدي غزاة أكسوم الإثيوبيين في عام 525 م.

الاقتصاد الزراعي

تشير الدلائل من سجل هطول الأمطار ودرجات الحرارة، إلى أن الجفاف المستمرة في جنوب شبه الجزيرة العربية طوال القرن السادس الميلادي ربما يكون قد أسهم في التغيرات الاجتماعية والسياسية العميقة التي حدثت أثناء ظهور الإسلام، وفقاً لدراسة جديدة نشرت يوم الخميس 16 يونيو/ حزيران في مجلة «ساينس» Science. تميز سقوط حمير وما تلاه بالاضطراب السياسي والتغير الاجتماعي والاقتصادي والتخلي عن أنظمة الري الرئيسية التي دعمت المملكة وشعبها في السابق. ومن المعتقد على نطاق واسع أن هذه التغييرات التحويلية، والتي أدت إلى تآكل الأنظمة السياسية العربية الكبرى، مهدت الطريق لصعود الإسلام في أوائل القرن السابع. ركزت التفسيرات المحيطة بهذا الاضطراب الاجتماعي على العوامل الاجتماعية والسياسية. ومع ذلك، فإن المنطقة العربية الجنوبية كانت معرضة للجفاف، ونظراً لأن اقتصادها مرتبط بالزراعة البعلية والمروية، فإن حمير كانت عرضة لنوبات الجفاف المستمرة.

نقطة تحوّل في التاريخ العربي

على الرغم من ذلك، فإن احتمال أن يكون الجفاف قد أسهم في تدهور حمير قد تم تجاهله بشكل عام من قبل الباحثين على مدار عقود. لذلك، جمع مؤلفو الدراسة الحالية بين السجلات الهيدرولوجية والتاريخية والأثرية من الشرق الأوسط وشرق إفريقيا مع سجل جديد عالي الدقة لهطول الأمطار الصخرية من شمال عمان، للتحقق من فرضية دور الجفاف في انهيار مملكة حمير. يقول المؤلف الرئيسي للدراسة، دومينيك فليتمان، أستاذ جيولوجية الزمن الرابع في جامعة بازل السويسرية، إن الدراسة أظهرت حالات الجفاف التي ضربت المنطقة طوال القرن السادس، واستمر الجفاف الأشد بين عامي 500 و530 م. كما أن التوافق بين ذروة الجفاف في جنوب شبه الجزيرة العربية والزوال المفاجئ لمملكة حمير يشير إلى وجود علاقة بين الحدثين. وفقاً للمؤلفين، فإن استمرار الجفاف في القرن السادس في منطقة تعتمد على الزراعة البعلية يتزامن مع نقطة تحول في التاريخ العربي، أدت إلى عدد من التحولات السياسية والاجتماعية والدينية على مدى العقود التي تلت ذلك.

باختصار

تميز سقوط حمير وما تلاه بالاضطراب السياسي والتغير الاجتماعي والاقتصادي والتخلي عن أنظمة الري الرئيسية

■■■

احتمال أن يكون الجفاف قد أسهم في تدهور حمير تم تجاهله من قبل الباحثين

■■■

غالباً ما يتم تجاهل حقيقة أن التغيرات في المناخ يمكن أن تؤدي إلى زعزعة استقرار الدول

إعادة بناء مناخ المنطقة

يوضح فليتمان في تصريح لـ«العربي الجديد»: «ما إذا كان هناك ارتباط زمني مباشر بين هذا الجفاف وانحدار مملكة حمير، أو ما إذا كان في الواقع لم يبدأ إلا بعد ذلك، لم يكن من الممكن تحديد ذلك بشكل قاطع من هذه البيانات وحدها». لذلك قام الفريق بتحليل المزيد من عمليات إعادة بناء المناخ من المنطقة من خلال المصادر التاريخية والتعاون مع المؤرخين لتحديد وقت الجفاف الشديد، الذي استمر عدة سنوات. «كان الأمر أشبه بقضية قتل: لدينا مملكة ميتة ونبحث عن الجاني. خطوة بخطوة، قربتنا الأدلة من الإجابة. تضمنت المصادر المفيدة، على سبيل المثال، بيانات حول مستوى المياه في البحر الميت ووثائق تاريخية تصف الجفاف لعدة سنوات في المنطقة ويعود تاريخها إلى 520 م، والتي تربط بالفعل الجفاف الشديد بالأزمة في مملكة حمير» يضيف المؤلف الرئيسي. وأشار فليتمان إلى أنه غالباً ما يتم تجاهل حقيقة أن التغيرات في المناخ يمكن أن تؤدي إلى زعزعة استقرار الدول، وبالتالي تغيير مسار التاريخ. وأضاف: «كان السكان يعانون من مصاعب كبيرة نتيجة الجوع والحرب. كان هذا يعني أن الإسلام قابل أرضا خصبة: كان الناس يبحثون عن أمل جديد، شيء يمكن أن يجمع الناس معا مرة أخرى كمجتمع. الدين الجديد قدم هذا لهم».

وأخيراً

هل مات حافظ الأسد؟

خطيب بدلة

ينظر سوريون كثيرون، ومحسوبكم منهم، إلى الدولة المصرية، بدهشةٍ ممزوجةٍ بشيء من الإعجاب. يمكننا أن نُطلق على الذين تولوا رئاسة الجمهورية المصرية منذ صيف 1952 صفة «ديكتاتور»، مع وجود فروق بين واحد وآخر. ومع ذلك، بقي في مصر نظام قضائي معقول، وصحافة تَكتب، ومحطات تلفزيونية تبث، ودور نشر تطبع، ومساجلات ومناظرات هادئة أو عنيفة تُعقد. وعند المساء، يذهب كل واحد من الناس إلى بيته، يضع رأسه على المخدّة وينام. وإن كانت قد وقعت حوادث اعتداء متفرّقة على حرية الرأي، فهي تدخل في باب الاستثناءات.

مثلاً؛ كان سيّد قطب، مؤسسُ الفكر الإسلامي الراديكالي، في السجن، وجمال عبد الناصر، الذي نسمّيه ديكتاتوراً، على سروج خيله، ومع ذلك، كان سيّد قطب يؤلف كتبه داخل السجن، ويرسل مخطوطاتها إلى الخارج، لتُطبع في مجلدات، وتُنشر، وتباع. عادي جداً. وعلى الرغم مما عُرفت بالصحوة الإسلامية التي بدأت مع بداية حكم أنور السادات، كان ثمّة كتّاب ينتقدون الاجتهادات الفقهية ونشاطاتِ الجماعات الإسلامية والدعمَ السعودي لتلك الجماعات، وتُنشر مقالاتهم في الصحف، وتنشر كتبُهم من دون صعوبات تذكر. وصحيحٌ أن المتشدّدين ضايقوا قاسم أمين، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، وعبد المتعال الصعيدي، وحتى الكاتب السعودي الذي أقام في مصر، عبد الله القصيمي، إلا أن هؤلاء الكتّاب لم يُنكل بهم على طريقة الحكم في عراق صدّام حسين، وسورية حافظ الأسد. والحق أن الوضع على أيام المَلَكية، وحكم الإنكليز، كان أكثر انفتاحاً بكثير من أيام الجمهورية، فالصحافي أبو الخير نجيب الذي انتقد الملك فاروق شخصياً لم يتعرّض لأذى، ولكنه وُضع تحت الإقامة الجبرية حتى آخر حياته، لأنه انتقد زعماء ثورة يوليو، وقال: كان عندنا ملك، وصار عندنا ملوك. وهناك حادثة أخرى لها دلالتها، أن عميد الأدب العربي، طه حسين، أحيل على القضاء بسبب كتابه «في الشعر الجاهلي» 1925، لكن القاضي محمد نور قرأ الكتاب بتمعّن، وناقش أفكاره في ضوء القوانين النافذة، وخرج بقرار أن الكتاب خالٍ من أية إساءة للمعتقدات. وحكم ببراءته. في كل الأحوال، وضعُ الحريات في مصر، خلال العصور المتتالية، ليس مثالياً، ولكنني أردت الإشارة إلى وجود «دولة» في مصر، لها قوتها الناعمة، ومؤسّساتها التي لم تتمكّن الحكوماتُ المتعاقبة من تدجينها وإخضاعها بالكامل، خلافاً لما فعله حافظ الأسد في سورية، خلال سنوات حكمه الثلاثين، إذ تمكّن من تحويل المواطن إلى شبح «مهستر»، يمشي في الشارع ويكلم نفسه: يا ترى، إذا عملتُ كذا وكذا، هل أؤاخذ؟ وإذا طُرق باب بيته في الليل، يهبط قلبه، وترتجف ركبتاه، وتصطكّ أسنانه، وتزرقّ «شفاتيره»، دواليك حتى يوقن أن الطارق ليس من المخابرات، فيتهالك على أقرب أريكة، ويُؤتى إليه بأقرب قادوس ماء ليبلع محتوياته دفعةً واحدة.

> السوريون المعاصرون يحسدون الذين عاشوا على أيام حافظ الأسد، لأنها أقلّ سوءاً من أيام وريثه المهووس

لا يعرف السوريون النفي، بل العكس، أول شيءٍ تفعله أجهزة الأمن، حينما تضع عينها على مواطنٍ ما، منعه من السفر، وتعميمُ اسمه على منافذ الحدود، ولا يعرفون الإقامة الجبرية، ومؤكّد أن الصحافيين السوريين الذين أرسلوا إلى السجن بأمر شفوي من حافظ الأسد يحسدون أبا الخير نجيب. ولا شك أن رئيس الجمهورية السورية، نور الدين الأتاسي، كان يحلم بإقامةٍ جبريةٍ تشبه إقامة الرئيس المصري محمد نجيب. وأما الأنفار العاديون، الذين لا أسماء لهم، ولا سجلّات، المودعون في سجن تدمر، فكانوا يبكون عندما يعدم زبانية السجن مجموعة من زملائهم، ليس حزناً على زملائهم، بل حسداً وضيقة عين، لأن مَن يُعْدَمْ يَرْتَاح، ومن يبقى ستدور عليه دائرة العذاب اليومية التي لا تطيقها الجبال.

مرّت 22 سنة على موت حافظ الأسد، والسوريون المعاصرون يحسدون الذين عاشوا على أيامه، لأنها أقلّ سوءاً من أيام وريثه المهووس.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**